مفهوم المعاصرة في شعر نزار قباني

قالت لي السمراء أنموذجا

مجلة الحداثة

السنة الخامسة – الأعداد 31- 34

ربيع وصيف 1998

د. كامل فرحان صالح

Kamel farhan saleh



السنة الخامسة – الأعداد 31- 34 – ربيع وصيف 1998 – (من ص 20 إلى 24)

مجلة الحداثة

لبنان – بيروت

https://alhadathamagazine.blogspot.com



الحداثة

مجلة فصلية ثقافية تعنى بمسائل التراث والحداثة

السنة الخامسة

المجلدان السادس عشر السابع عشر ربيع وصيف ١٩٩٨

الأعداد

الحادي والثلاثون
الثاني والثلاثون
الثالث والثلاثون
الرابع والثلاثون

الهيئة الإدارية

رئيس التحرير فرحان صالح
المدير المسؤول نقولا ناصيف
أمانة التحرير كامل صالح
الإخراج الفني البراق (جعيد برس)

جوزف فاخوري ١٩٩٣ - ١٩٩٧

الهيئة الاستشارية

احمد ابو سعد - الهام كلاب البساط - اكرم قانصو - مفيد ابو مراد - مطانيوس حلبي - توفيق الباشا - سلام الراسي - عبد الله العلايلي* - علياء شكري - فريدريك معتوق - وليد غلمية - نبيلة ابراهيم.

عبد الله العلايلي ١٩٩٣ - ١٩٩٦

الادارة: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

العنوان: بيروت - حارة حريك - شارع العضيمي - متفرع من طريق المطار - بناية عويدات - تلفاكس: ٥٥٥٢٩١

- المواد التي ترسل الى المجلة لا تعاد الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

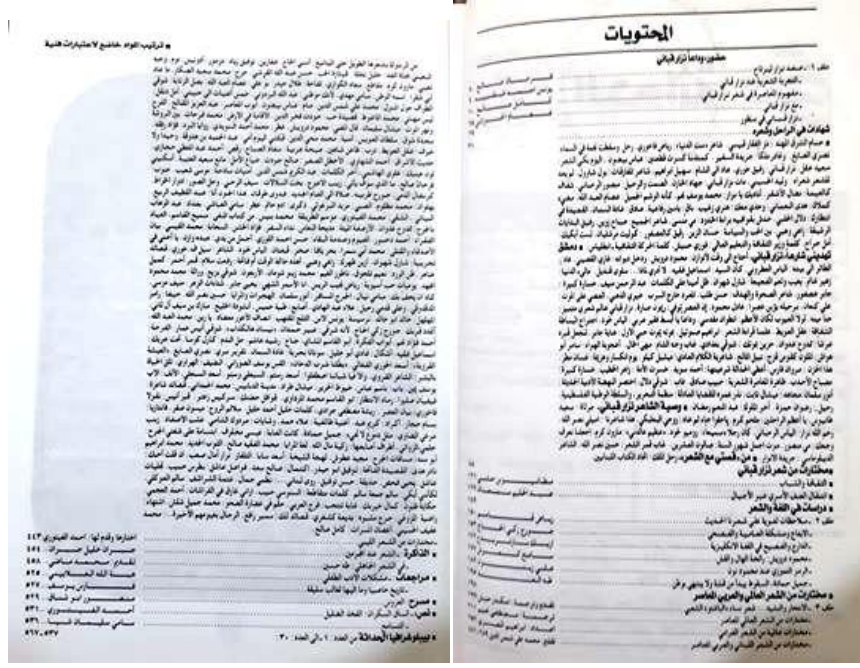
- حقوق الطبع والنشر محفوظة.

الاشتراكات لأربعة أعداد (شاملة أجور البريد الجوي المضمون)

في لبنان: ٦٥ ألف ليرة لبنانية للأفراد - ١٦٠ ألف ليرة لبنانية للمؤسسات
الدول العربية: ٧٠ دولاراً أميركياً للأفراد - ١٢٥ دولاراً أميركياً للمؤسسات
الدول الأجنبية: ٨٠ دولاراً أميركياً للأفراد - ١٥٠ دولاراً أميركياً للمؤسسات

المراسلات باسم رئيس التحرير - بيروت - ص.ب. ١٤٥٦٣٦

الإعلانات يتفق بشأنها مع الإدارة



المحتويات

مفهوم المعاصرة في شعر نزار قباني (قالت لي السمراء أنموذجًا)– د. كامل فرحان صالح – مجلة الحداثة ربيع وصيف 1998

(من ص 20 إلى ص 24) – السنة الخامسة – العدد 31 – 34

مفهوم المعاصرة في شعر نزار قباني

كامل صالح(*)

(ديوان قالت لي السمراء ١٩٤٤)[١]

المعاصرة هي فعل ومشاركة في تكوين العصر وخلق مجاريه نحو المستقبل[٢] وبمعنى آخر هي ارتباط الكاتب بمجتمعه وفهمه لمشاكله مع محاولة منه لتحري بعض العوائق التي تعترض مجتمعه؛ ومحاولة منه أيضاً لإبعاد الترسبات المتحكمة في الذاكرة كبعض المفاهيم والعادات التي يراها الإنسان العاقل - المتفتح أنها سيئة وضد المنطق والتقدم والحضارة الإنسانية، وكما يقول عز الدين اسماعيل في كتابه عن المعاصرة أيضاً: إن ليس المهم بالنسبة للتجديد ملاحظة شواهد العصر، ولكن المهم هو فهم روح العصر[٣].

مع هذا التعريف المبسط لمفهوم المعاصرة أسعى لدراسة قصائد نزار قباني محاولاً تبيان المنحى الفكري المعاصر عنده ومدى ارتباط قصائده بالمجتمع مع مدى محاولته لفهم روح عصره ومعالجة قضاياه، وبما أن الموضوع شاسع ورحب ويتطلب عناوين عديدة مع دراستها لإظهار مفهوم المعاصرة في شعره، لقد حددنا بحثنا للإطلالة على موضوع المرأة العربية كما تحدث عنها وبها نزار قباني في ديوانه، وليس اتخاذنا موضوع المرأة لدراسة المعاصرة في شعر نزار أمراً اعتباطياً أو مزاجياً، إنما جاء بعد أن رأينا أن نزار قباني كان يتوسل المرأة لطرح أفكاره وآرائه وهواجسه ومعاناته في مجتمعه وعصره، فالمرأة - كما سيلاحظ بعد قليل - ليست هي المقصودة بحد ذاتها في معظم ما جاء في الديوان، إنما كانت غلافاً، إذا صح التعبير، لآراء نزار في المجتمع والوطن والحب، وعلاقة الإنسان بخالقه وباللغة العربية، والمرأة بشكل أكيد.

* * *

المعاصرة - المرأة:

«يدي في ذراعك أين الضياع
تخافينه؟ نحن نهدي الهدى»
(الديوان ص ٢٤)

إن أول ما يلفت الانتباه في ديوان «قالت لي السمراء» هو العنوان، فهو بحد ذاته فكرة لم تكن مستساغة في مجتمعاتنا، وهي الاستماع إلى المرأة إن كان قولها رأياً أو همّاً أو إحساساً أو حتى رفضاً. وكلمة سمراء في العنوان تعني بشكل واضح المرأة العربية، لما تتسم به - بالشكل الأعم والأغلب - من سمرة نتيجة المناخ والبيئة. إذن المرأة العربية هي التي تقول لا الرجل، وهذه المرأة هي التي يريد نزار قباني جعلها أمثولة لغيرها ومحركاً لهن للقول والتعبير والرفض، بأن - يجعلن كلامهن واضحاً ظاهراً

(*) شاعر من لبنان.



كعنوان كتاب مثلاً، ويتضمن معنى المخاطبة والتصريح عما يشعرن به وما يودون طرحه. ونقول هذا الأمر لأننا إذا ما طالعنا ما كان يجري في تلك الحقبة في أوائل هذا القرن للاحظنا الاضطهاد والمنع والطوق الواقع على المرأة العربية آنذاك، والدليل على ذلك الأمثلة الكثيرة التي أوردتها بعض الكتب عن وضع المرأة في مجتمعاتنا العربية؛ فحكومة الملك فيصل مثلاً عنيت بفتح المدارس للبنات فانتفض الشعب وتظاهر، وكان ينادي «القبر ولا المدرسة»(٤)؛ إلا أن هذا الأمر لم يكن سوداوياً إلى هذا الحد، فقد ظهرت أصوات كثيرة ومن ضمنها رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين ومحمد عبده وحافظ ابراهيم تحمل شعار العدالة الاجتماعية والتغيير نحو الأفضل، والمطالبة بحقوق المرأة والمساواة بينها وبين الرجل. وقد تفاعلت هذه الأصوات جميعاً وامتزجت بعضها ببعض نحو هدف أوحد وهو الدخول في الحضارة من جديد، إذ كيف نسعى إلى مجتمع متمدن وحضاري، طالما أن نصفه الأول في الضوء ونصفه الثاني قابع في الظلام؟(٥)

وقد جاءت قصائد نزار قباني بعد إرهاصات عديدة ومحاولات كثيرة في تغليب المنطق والعقل على الجهل السائد.

إذن نزار قباني كما قلنا سابقاً كان يتوسل موضوع المرأة العربية لطرح آرائه في العصر الذي يعيشه، فقد طرح مشكلة اللغة والإنسان العربي فنراه في بداية ديوانه يمزج اللغة بالإنسان، وهذه اللغة تنبع منه وتعبر عنه فتتحول بتحوله وتتطور بتطوره، وليست منفصلة عنه - يقول:

كان نزار قباني يتوسل موضوع المرأة العربية

كان نزار قباني يتوسل موضوع المرأة العربية

لطرح آرائه في العصر الذي يعيشه

«أنا الحرف، أعصابه، نبضه
تمزقه قبل أن يولدا...» ص ١٦.

ويطرح أيضاً معنى الوطن إذ الوطن هو نحن، ونحن بالتالي الوطن، فما قيمة البلاد الجميلة من دون أناس يدافعون عنها ويحبونها ويتلاحمون وترابها

«.. أنا لبلادي.. لنجماتها
لغيماتها.. للشذا.. للندا...» ص ١٦

وإذ نتابع مقدمة الديوان نقرأ أيضاً الأبيات التي يطلب فيها نزار قباني من قارئه أن يكون عادلاً وأن يمتزج نقده بتفهم لمعنى الكلمة، وبمعنى آخر يطالب بنقد بنّاء وواع وليس مجرد رفض للرفض، إذ يقول:

«فيا قارئي.. يا رفيق الطريق
أنا الشفتان.. وأنت الصدى
سألتك بالله.. كن ناعماً
إذا ما ضممت حروفي غدا
تذكر.. وأنت تمر عليها
عذاب الحروف.. لكي توجدا» الديوان ص ١٨.

ومن خلال هذه الأبيات لمسنا بمعنى آخر غير ظاهر ما مدى معاناة الشاعر، إذ يتوجه إلى القارئ بالرأفة على ما سيكتب قبل أن يقرأ هذا القارئ القصائد، وكأن نزاراً هنا كان يعرف قارئه ويعلم ردّة فعله المباشرة فيطالبه بالتذكر والتروي وتأمل الحروف، وعدم المرور عليها بشكل عابر، إنما لرؤية ما تحمله من معنى واحتمالات تهمه - أي القارئ - وتحكي عنه ومنه.

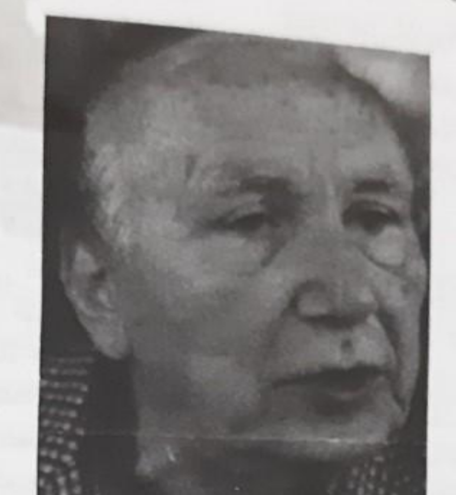
وفي متابعتنا للديوان تطالعنا مقاطع عدة، وللوهلة الأولى نعتبرها غزلاً أو إلحاداً وكفراً، غير اننا إذا تمعّنا أكثر لاحظنا وجود مفهوم آخر يطرح حول علاقة الإنسان بخالقه، وهذه المقاطع هي:

مفهوم المعاصرة في شعر نزار قباني (قالت لي السمراء أنموذجًا)– د. كامل فرحان صالح – مجلة الحداثة ربيع وصيف 1998
(من ص 20 إلى ص 24) – السنة الخامسة – العدد 31 – 34

«.. فيهمس لي: أنت تعبدها

لماذا تكابر.. أو تكتم..» الديوان ص ٢٣

ومن خلال هذا المقطع يضرب نزار كل الموروث المحمول في ذاكرة بعض الناس حول دور المرأة في الحياة، فهي ممنوعة منعاً باتاً من الاستمتاع بضوء الشمس وطراوة الهواء ومصاحبة البشر؛ فهي تعيش وراء النوافذ.. وإذا أذن لها بالخروج تحتّم عليها أن تغطي جسمها، من قمة الرأس إلى أخمص القدم. ويوصف كاتب الأجنبي حالة المرأة العربية من خلال ما شاهده في بدايات هذا القرن، فيقول: وإذ تتنقل في هذا الزي الغريب تشبه خيمة صغيرة تتمايل بارتباك(٦).



وإذا تابعنا ما كان يدور حول المرأة من كلام وآراء لأتحفنا بالكثير وأقله الذي جاء على لسان ابن نابلس واصفاً المرأة في بلده، وفي الواقع إنما كان يصف نساء ذلك الزمان في أكثر البلاد الإسلامية فيقول: إذا أرادوا في بعض القرى أن يذكروا اسم المرأة يقرنون معه كلمة «أجلّك الله»(٧).

ومع عرضنا لبعض هذه الأقوال نلمس ما مدى معنى أن تتحول المرأة إلى معبودة وليس إلى عابدة، فنزار في هذا المقطع الشعري يستخدم رمز العبادة ليرفع المرأة وليوحي لها بأنها هي أيضاً مخلوقة الله ولها الحق في أن نحترمها ونقدرها ونكلمها.

وفي المقطع التالي نلاحظ تصاعد الوتيرة في شعر نزار، فهو يطرح فكرة تفهم الأمر الإلهي بمنظور آخر لأن عندما نشجع المرأة ونحترمها ونمد لها يد العون، نكون قد سمونا وأزلنا من عقولنا الفكرة المخيفة عن الخالق، فيقول:

فا...

يسجدا» الديوان ص ...

ونقرأ في مقطع لاحق أسئلة تطرح على الخالق، وهذه الأسئلة أسئلة إنسان متعجب مبهور بفم امرأة، فلم يتورع عن سؤاله أو حتى الطلب منه - أي الله - أن يرد عليه، إذا لم يتعب ولم يسأم من نحت ذلك الفم(٨). وهذا ما يجعلنا نقول أن المسألة لم تعد خوفاً ورعباً كما ورثناها، والتهويل في مسألة الخالق، فهو رحيم، ويسمعنا ويبيننا ومعنا، فهذا التفاعل المعنوي بين المخلوق والخالق جعل النظرة مختلفة اتجاهه، فهو يتحسس ما فينا، ويتجسد في أشياء نحبها، ونعشقها، ونستطيع أن نشكو له همنا، وأن نكشف له عن غرائزنا واستغرابنا.

ويتضمن الديوان أيضاً دعوة بارزة للمرأة بأن تثور، وتنطلق نحو حرية لا اخالها الجسد كما ورد في معظم القصائد، بل هناك شيء أهم وأقوى من هذا، ألا وهو الدعوة إلى ملامسة الحرية بالجسد، والروح والانفلات من أغلال تزداد كل يوم؛ فيطلب منها أن تكتب وتراسل حبيبها علانية، إذ يقول:

«إليّ اكتبي ما شئت.. إني أحبّه

وأتلوه شعراً.. ذلك الأدب الحلوا..» الديوان ص ٢٦.

ويقول في مقطع آخر:

«فما بك ترتابين؟ هل من غضاضة



إذا كتبت أخت الهوى للذي تهوى؟» الديوان ص ٢٧.

وفي قصيدة «أنا محرومة» يتكلم نزار بلسان امرأة ترفض واقعها وتشكو همها من هذا الظلم الاجتماعي فيقول بلسانها:

«لا أمه لانت.. ولا أمي
وحبه ينام في عظمي» الديوان ص ٣٤.

وفي قصيدة أخرى يؤنب نزار المرأة التي تبيع حبها لرجل آخر لمجرد أنه غني. ومن خلال هذه القصيدة نلمس رؤية المرض الذي نتخبط فيه والحالة الاجتماعية التي نعيش فيها. فالحب - أي القيمة الانسانية التي يفترض أن تربطنا بعضنا ببعض - تتحول إلى قيمة تجارية بشعة، ويظهر لنا من خلال هذه القصيدة أيضاً الوضع الاقتصادي الذي يؤدي إلى تحويلنا إلى أشباه آلات(٩).

وبعد أن كانت المقابر هي أكثر المحلات إباحة لزيارة النساء(١٠)، وإن ارتياد الحانات والمقاهي كان يعتبر مظهراً من مظاهر الانحطاط الأخلاقي على حد تعبير الجبرتي؛ كما أن لبس الفستانات(١١)، كان من مظاهر الفساد، فإننا نرى في عناوين قصائد نزار تركيزاً واضحاً على ثياب المرأة وحليها وجسدها وما تتصف فيه، وكأنها دعوة إلى التفلت من هذه الأشياء المحرّمة عند بعضهم، وبالتالي إظهار الجمالية والأهمية لدور المرأة التي هي، في نهاية الأمر كما في أوله، نصف العالم.

فمثلاً عناوين: مذعورة الفستان وأنا محرومة واسمها وغرفتها وزيتية العينين وفم والقرط الطويل ورافعة النهد ونهداك والبغي، نلاحظ في بعض العناوين أشياء جديدة كلياً في عالم الشعر ألا وهي التسمية الجلية الواضحة لأمور خصوصية جداً، والكلام عليها يدور في الهمس، ومع هذا نتأكد من مدى جدّية نزار قباني في قلب الموازين المتوارثة، وهنا تطرح أمامنا إشكالية الناحية الحياتية والناحية الثقافية التي طرحها أدونيس في كتابه، إذ يقول:

«العربي، من الناحية الحياتية يتطور في حركة لا نهاية لها، في حين أنه مرتبط من الناحية الثقافية، بقيم ثابتة تعتبر صالحة لكل زمان ومكان، وفي هذا تناقض فاجع يعيشه كل منّا»(١٢).

ونزار يسلّط بشكل غير مباشر على هذه الناحية. لكن نسأل: هل هذا ضد الدين والأخلاق؟ وهل المعاصرة تكون في التخلي عن هذا الموروث وشتمه أو حتى تحريكه؟ ولكن من خلال اطلاعي على القصائد، لاحظت وجود مبالغة في بعضها تجاه المرأة وتحررها، لكنني عدت واقتربت منه وذلك بعد اطلاعي على ما كانت عليه المرأة آنذاك من اضطهاد لا يوصف، فكانت قصائد نزار قباني ردّة فعل مباشرة إلى حد ما تجلّى هذا الوضع، وكل ما في الأمر أنه أراد الإسراع في الحركة التي كانت تظهر في المجتمع العربي، وحاول نزار كما يقولون في العامية «هز المسمار».



أظهر وكأنني أدافع عن نزار وشعره، وأؤيده. لا، فالأمر ليس كذلك، إنما هو صحوة عقل يريد فعلاً التغيير، وتلمس المستقبل والانعتاق من خرافات صنعت لخنقنا لا تمت إلى ديننا بأية صلة وبأي رابط.

إذن مشاركة المرأة في الفعل الحضاري، ليست ثانوية أو مبتذلة، بل هي في صميم تقدمنا وتطورنا، وإزالة هذا الركود الذي نتخبط فيه.

فالدعوة إلى تحرر المرأة هي دعوة إلى ولوج المستقبل بخطوات ثابتة ومترسخة ورائدة. ودعوة نزار قباني في ديوانه الأول «قالت لي السمراء» لتحرر المرأة اشتملت على الأصعدة كلها، فهي دينية واجتماعية وأدبية واقتصادية، ولم يتلكأ في طرح المشكلة والجهر بها علانية. فهل نعتبر شعره مبتذلاً؟ ومستغلاً لوضع المرأة؟ سؤال يطرح إذا أردنا أن نرى الظاهر فقط، دون تلمس الكلمات بعقل إنساني حضاري.

والرد العملاني خبرته من خلال مهنتي بالكتب، فإن أكثر الكتب مبيعاً في عالمنا العربي هي كتب نزار قباني، كما إنها ممنوعة في معظم هذه البلدان أيضاً. إذن نزار قباني معروف شعبياً ومقروء، وبالمقابل ممنوع من قبل الأنظمة. فهل نسأل لمَ هو مرغوب ومقروء؟ وهل الأمر هكذا اعتباطياً؟ لا، فنزار قباني لامس وجدان الأمة وانصهر فيها وتكلم عنها، فأتى شعره صادقاً ومخلصاً لما تحلم به الشعوب العربية وما يحلم به هو بالذات ألا وهي الحرية، لذا نرى تشدد الرقابات في منع كتبه.

كلمة أخيرة:

آمل لهذا البحث أن لا يفقد القصائد التي تطرقت إليها عذريتها وعالمها وأحلامها، إذ مهما حاولنا تطويق الكلمة الإبداعية (الشعرية) نظل بمنأى وبعجز كلي عن التقاطها، لأنها مفتوحة على فضاءات لا تحد ولا ترضخ للنقد□.

* * *

الهوامش:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - المجلد الأول - منشورات نزار قباني - بيروت ١٩٨٣ - ط ٣ (من ص ١٣ إلى ص ٨٦).

(٢) راجع نديم نعيمة - الفن والحياة - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٣ (فصل أزمة الإبداع في التأليف العربي الحديث).

(٣) راجع الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، دار العودة بيروت ١٩٨٨ - ط ٥ - (مدخل: الشعر بين العصرية والتراث).

(٤) محمد جميل بيهم: المرأة في حضارة العرب - العرب في تاريخ المرأة - دار النشر الجامعيين ١٩٦٢ - د. م - ص ٢٩٢.

(٥) سمير أبو حمدان - موسوعة عصر النهضة - رفاعة رافع الطهطاوي - الشركة العالمية للكتاب ١٩٩٢ بيروت.

(٦) جورج بالوشي هورفات: الثورة الجنسية - ترجمة د. سامية أسعد - ص ١٩٧ - دار الطليعة بيروت.

(٧) محمد جميل بيهم: المرأة في حضارة العرب - ص ٣١٢.

(٨) الديوان ص ٥٩.

(٩) الديوان ص ٥٢.

(١٠) محمد جميل بيهم: المرأة في حضارة العرب - ص ٣١٢.

(١١) راجع كتاب موسوعة عصر النهضة - فصل تحرير المرأة.

(١٢) أدونيس - زمن الشعر - دار العودة، بيروت ص ٤١.





AL - HADATHA

N° 31-32-33-34 Spring & Summer-1998

تصدر عن دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيروت – لبنان – ص.ب 5636-14 تلفون : 01/555291

في هذا العدد

لوحة الغلاف: [illegible]

نزار قباني:



نزار توفيق قباني (1923 – 1998) ديبلوماسي وشاعر سوري معاصر، ولد في 21 آذار 1923 من أسرة دمشقية عريقة، إذ يعدّ جده أبو خليل القباني من رواد المسرح العربي. درس الحقوق في الجامعة السورية، وبعد تخرجه منها العام 1945 انخرط في السلك الدبلوماسي، متنقلاً بين عواصم مختلفة حتى قدّم استقالته العام 1966. أصدر أولى دواوينه في العام 1944 تحت عنوان: "قالت لي السمراء"، وطبعه على نفقته الخاصة، وكتبَ له المُقدّمة منير العجلاني الذي أحبّ القصائد ووافق عليها. أثار هذا الديوان جدلاً في الأوساط التعليمية في الجامعة، فذاع صيت نزار بعد نشر الديوان كشاعر إباحي. وفي تعليقه حول صدور ديوانه الأوّل كتب: "قالت لي السمراء" حين صدوره أحدث وجعًا عميقًا في جسد المدينة التي ترفض أن تعترف بجسدها أو بأحلامها... لقد هاجموني بشراسة وحش مطعون، وكان لحمي يومئذ طريًّا".



تابع نزار عملية التأليف والنشر التي بلغت خلال نصف قرن 35 ديوانًا أبرزها "طفولة نهد" (1948)، و"الرسم بالكلمات" (1966). أسس دار نشر لأعماله في بيروت باسم "منشورات نزار قباني"، وكان لدمشق وبيروت حيز في أشعاره، من ذلك: "القصيدة الدمشقية"، و"يا ست الدنيا يا بيروت". أحدثت حرب 1967 التي أسماها العرب "النكسة"، مفترقًا حاسمًا في تجربته، إذ أخرجته من نمطه التقليدي بوصفه "شاعر الحب والمرأة" لتدخله معترك السياسة، وأثارت قصيدته "هوامش على دفتر النكسة" عاصفة في الوطن العربي وصلت إلى حد منع أشعاره في وسائل الإعلام.

على الصعيد الشخصي، عرف قبّاني مآسي عديدة في حياته، بدأت في طفولته مع انتحار شقيقته، بعد أن أجبرها أهلها على الزواج من رجل لم تكن تحبّه، وهو ما ترك أثرًا عميقًا في نفسه، وربما ساعد في صياغة فلسفته العشقيّة لاحقاً، ومفهومه عن صراع المرأة لتحقيق ذاتها وأنوثتها، ثم وفاة ابنه توفيق في العام 1973 الذي رثّاه في قصيدته "الأمير الخرافي توفيق قباني"، وصولاً إلى مقتل زوجته بلقيس خلال تفجير انتحاري في بيروت في العام 1982. عاش السنوات الأخيرة من حياته في لندن يكتب الشعر السياسي، ومن قصائده الأخيرة "متى يعلنون وفاة العرب؟". وافته المنية في 30 نيسان 1998 ودفن في مسقط رأسه دمشق.

مفهوم المعاصرة في شعر نزار قباني (قالت لي السمراء أنموذجًا)– د. كامل فرحان صالح – مجلة الحداثة ربيع وصيف 1998
(من ص 20 إلى ص 24) – السنة الخامسة – العدد 31 – 34